الموسيقى لغة الروح

الأستاذ ابراهيم الدرويش المصري
مفتش التربية الموسيقية في سوريا

علي الدرويش علم من اعلام الموسيقى فى القطر العربي السوري .

ياخذ موقفنا من الموسيقى اوضاعا ثلاثة :

1 ـ نستمع اليها كوسيلة لترفيه والطرب ، والاستماع الفني .

2 ـ نبحثها كعلم وفن وصناعة ومهنة .

3 ـ نبحثها فى اثرها العام كثقافة وتذوق وتوعية وتوجيه ، وفى اثرها التربوي الخاص ، وهو ما يهمنا فى هذه الكلمة .

الموسيقى فن رفيع بل لعله ارفع الفنون . هي لغة الروح المجردة عن المادة ، المنطلقة من سلاسل الحياة وقيودها . هي لغة نبيلة تستطيع ان تانس اليها كل روح ويطمئن اليها كل قلب لانها**الصدى الذي يعبر عن مشاعر لا تستطيع لغة الكلام ان تجاريها فيها.** وارتباط الموسيقا هذا الارتباط الوثيق بالعاطفة الانسانية يجعل تاثيرها امضى واكثر من غيرها من الفنون الجميلة فى توجيه الروح والقلب وفى تفتح الطاقات وتفجيرها ، كخطوة اولى فى سبيل توجيه الفكر البشري .

لان تاثير الموسيقى لا يزول بتاثير النفحة واللحن المنبعث من الآلة الموسيقية او من الحنجرة البشرية ، اذ انها تنقل المشاعر الى عالم جميل علوي يستسيغه العقل ويعمل فيه بحرية وحيوية .

ولما كان التفكير يتاثر بالمؤثر الخارجي وبالظروف الآنية التي ينشط فيها ، فان النتيجة التي يصل اليها فى حالة التاثر بالموسيقى ، هي نتيجة لا شك انها من مقومات الفهم التام والجمال المجرد الذي يتجه ناحية الخير .

ولم يعد اثر فن الموسيقى محصورا فى اطراب الاذن واشباع الحواس ، كنوع من الترف والكماليات كما كان شائعا فيما مضى ، بل تعداه الى تادية خدمات جليلة فى كل ميدان من ميادين التربية والمادة والمجتمع .

وكانت الحرب العالمية الاخيرة اختبارا قويا لقيمة هذا الفن فى ميادين عدة كالتوعية والتوجيه والترقية .

ولقد ادت الموسيقى دورها من قديم كوسيلة للدعاية المثمرة . فقبل قرن مضى تقريبا كانت « بولونيا » لا تعدو كونها امة مستعبدة تتناوب حكمها دولتان قويتان ، روسيا والمانيا وكانت اخبار كفاح شعبها الباسل ـ نظرا لتاخر وسائل المدنية آنذاك ـ تصل مشوهة لا تلفت ولا تثير الا عطفا وقتيا . لقد اخفقت السياسة وفشلت الدعاية فى لفت انظار العالم الى نصرة بولونيا الجريحة ولكن الموسيقى نجحت فيما اخفقت فيه جميع الوسائل ونجح موسيقى فى استدرار العطف على امته واثارة ضمير الانسانية فى صالح بلاده. فقد صور شوبان فى مقطوعته(البولونية)

كفاح شعب جريح وصور في الحانها نداء الحق المهضوم فاذا بهذه المقطوعة الموسيقية تسدي خدمة لم تسدها السياسة قط الى شعب مناضل مكلم . وتحررت بولونيا لان موسيقى (شوبان) قد حركت الضمير البشري .

ومندي اكثر من مثال على ان **الموسيقى تستطيع باشراف الدولة ان توجه الجماهير والشباب والاجيال في التربية والتوعية الهادفة** ، توجيها كليا .

مثالنا على ذلك موسيقى (فاكنر) الالماني التي ادت دورا هاما في حياة المانيا ، فقد اوحت مقطوعاته الى الشعب الالماني روح النضال والكفاح في سبيل البقاء والاتحاد ، وكانت عاملا قويا في تكوين المانيا ايام حرب السبعين ، ثم استخدمت ثانية في النهوض بالمانيا بعد هزيمتها في الحربين العالميتين الاولى والثانية فقد ادخلت في البرامج الدراسية وفي الشهادات العامة وبثت في نفوس الشعب الالماني فوجهته الى التفاني في محبة الوطن والقومية وخدمت اغراض السياسة ايضا .

وقس على ذلك نشيد (المارسيلياز) الذي كان من عوامل حماية الثورة الفرنسية وقد الف كلماته ولحنه الثائر (روجيه دي ليل) . وانا شيد معركة بور سعيد العربية عام 1956 واخص بالذكر نشيد (الله اكبر) ، ثم بعض اناشيد الثورة في الجمهورية العربية السورية . وهناك امثلة لا حصر لها .

ولم يقتصر عمل الموسيقى على الميادين الروحية بل تعدتها الى الميادين العملية ، اذ ان استخدامها في المصانع خلال الحرب الاخيرة وما بعدها ، قد ادى الى زيادة الانتاج زيادة كبيرة ملحوظة .

ولا اغالي اذا قلت بان الدول الكبرى كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ومعظم الدول النامية واخص بالذكر سويسرا التي ظهر فيها المربي (جاك دلكروز) **مؤسس مدرسة التعليم والتربية الموسيقية** عام 1913 ـ كانت سباقة في ادخال الموسيقى كوسيلة من وسائل التربية ، فقد اثبتت الاختبارات العلمية الدقيقة ان **الموسيقى تلعب دورا هاما في تكوين شخصية ونفسية الطفل في سنيه الاولى وفي دور المراهقة والشباب ايضا .**

ولذا اصبحت **الموسيقى من مقومات الحضارة الحديثة** كعلم وفن وصناعة ومهنة ووسيلة خطيرة من وسائل الدعاية والتوجيه والتوعية والتربية والتعليم .

كما ان الموسيقى تريح العقل كما يريح الاستجمام الجم لماتبثه من نشاط فكري نشاهد اثره واضحا جليا في تفكير الطفل وزيادة قابليته للفهم والاستيعاب .

وهكذا نلمس للموسيقى آثارا ثلاثة في التربية:

1 ـ اثرها في التوجيه والتربية العامة للشعب .

2 ـ اثرها في تربية الروح القومية والمحبة للانسانية .

3 ـ اثرها التربوي في المدرسة .

لهذا كان لا بد لنا اذا ما اردنا ان نقوم على تربية جيل جديد يتوقف عليه ازدهار شان امتنا **ان نأخذ بعين الاعتبار مسالة ادخال الموسيقى بصورة جدية في وسائل التربية كعنصر اساسي للتربية النفسية والخلقية وتقريرها في مناهج التعليم العام بجميع مراحله** واعتبارها في الشهادات العامة ، والعمل على افتتاح المعاهد الموسيقية لرعاة الموهوبين والمعاهد الشعبية لتثقيف الهواة ، وتنظيم الامور الموسيقية والعناية بها باخلاص ونزاهة في كل من الاذاعة والتلفيزيون . على ان يكون هدفنا دوما توجيه فن الموسيقى توجيها سليما للتاثير على عقلية رجال ونساء الغد بما فيه دعم بناء الامس .

واري ان تكون الموسيقى قطعة من حياة الطفل ذكرا كان ام انثى وخاصة في مرحلة رياض الاطفال والتعليم الابتدائي ، واري ان تربي غرائز الطفل ونفسيته تربية موسيقية وخلقية قويمة بتوجيه فني تربوي ، يستطيع أن ينفذ الى مشاعره ويسمو بها .

وبهذا تسهل مهمة المربي والمربية لان الموسيقى اداة فعالة في تدريب عقلية الطفل وتهذيب نفسيته وتوسيع مداركه في الطريق التي ترسمها قواعد التربية .

ولنضرب مثلا للمجهود العربي في هذا المجال بحياة علم من الاعلام الموسيقى في القطر العربي السوري **هو الاستاذ علي الدرويش** : فقد ولد وتوفي في حلب 1884 م ـ 1952 م .

كان جده الاكبر من اصل مصري عربي ، خلف ولدا اسماه ابراهيم ، كان ابراهيم هو والد علي الدرويش يشتغل بتجارة الاقمشة وقد نشا نشاة عصامية دينية ، تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب

والمدارس الدينية وكان ذا صوت حسن ومن اتباع الطريقة المولوية «التكايا المولوية » في العهد التركي العثماني ، فكان لذلك اثر كبير ورثه عنه ابنه الصغير علي ، وعندما كان الفتى الصغير علي يدرس في المدرسة الاشرفية الابتدائية ، ينتهز العطل المدرسية وخصوصا ايام الجمعة ليزور والده في التكية للاستماع الى حفلاتهم الخاصة ، فكان يستمع طويلا الى اناشيدهم وموسيقاهم الصوفية ويعجب بها ومن هنا نشأ تعلقه بالموسيقى وشغفه بها .

انس شيخ التكية « عامل جلبي » بالشاب علي صوتا جميلا وميلا قويا للموسيقى فاوكل اليه مهمة اداء الاذان في شهر رمضان .. ثم طلب من والده ان يلقنه الحان الطريقة المولوية واغانيهم كي يشترك ابنه علي في حفلاتها وكانت تضم جدران التكية المولوية في ذلك الحين « عثمان بك » الملقب « كجوك عثمان » مؤذن السلطان عبد العزيز سابقا الذي نفاه السلطان عبد الحميد عند توليه الحكم وعلى يدي « عثمان بك» تلقى علي دروسه الاولى في مبادىء الموسيقى وقواعدها الاولية . ثم زار مدينة حلب في هذه الفترة من الزمن موسيقار تركي من اشهر نافخي « الناي » يدعى « شرف الدين بك » وقد اخذ عنه علي الشاب دراسة النفخ بالناي ؛ وفي تلك الاثناء كان يجمع ما بين دراسته في المدرسة اثناء النهار ودراسته الموسيقية في التكية اثناء الليل . وعندما انهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة العثمانية للعلوم الدينية سابقا وهي « الخسرفية » والكلية الشرعية حاليا وكان من اساتذتها المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ بشير الغزي . وعندما انهى دراسته في هذه المدرسة بعد اربع سنوات كان ما زال منكبا على دراسته الموسيقية وقد لقب بالشيخ علي لتقدمه في الفن الموسيقي على اقرانه وتفوقه فيه ، ثم لدراسة في المدرسة العثمانية ولقب بالدرويش ايضا لانتسابه الى الطريقة المولوية فاطلق عليه الشيخ علي الدرويش ، وكان يطلق عليه ايضا « علي دده » بالتركية لانتسابه الى الطريقة المولوية . لذلك فقد اتقن هذا الشاب اللغتين العربية والتركية وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة .

وقد عينه بعد ذلك شيخ التكية (عامل جلبي) في وظيفة (قدوم زادباشي) رئيس جماعة الموسيقيين في « المطرب » وهو المكان الذي كان يجلس فيه جماعة العازفين والمغنيين اثناء حفلاتهم الخاصة ،

وبقي في هذا العمل زهاء عشرة أعوام متوالية ، كان خلالها دائم البحث والتنقيب عن أصول الموسيقى ودقائقها بصورة عامة والموسيقى والالحان والمؤلفات العربية التركية بصورة خاصة . لذلك فان الشيخ علي تأثر كثيرا بأساليب والحان الموسيقى التركية التي طعم بها الموسيقى العربية بمؤلفاته والحانه، وقد لحن **عددا كبيرا من الالحان باللغة العربية** ومن الالحان الآلية كالبشارف والسماميات ؛ ومن الالحان المولوية باللغة التركية وهي الحان مطبوعة بطابع الخشوع والوقار والمعروفة باسم « آيين شريف » ومن الحانه آيين كردبلي حجاز كار وغيره ..

رحل الشيخ علي رحلته الاولى من حلب الى امارة المحمرة في ولاية البصرة وقد ارسل في طلبه امير المحمرة على راس فرقة موسيقية غنائية وذلك بعد ذيوع شهرته خارج البلاد السورية،وعندما سافر الى المحمرة كان عمره حوالي السابعة والعشرين عاما بعد ان استقال من وظيفته في المولوية نهائيا . وكان تاريخ سفرهالى المحمرة وعودته منها ما بين عام 1912 الى عام 1914 م . وقد عاد الى بلده حلب في بداية الحرب العالمية الاولى فقد امضى في ضيافة (الامير خزعل) سنتين كان فيهما موضع حفاوته واكرامه مع اعضاء فرقته الموسيقية .

انتهز فرصة وجوده في تلك البلاد فزار البصرة وبغداد وطهران ومنها سافر الى الهند وحل في كراتشي وبومباي ثم قفل راجعا الى حلب ابان الحرب العالمية الاولى أيام حكم السلطان رشاد كما ذكرت.

وفي عام 1914 حتى عام 1923 م . سافر الى البلاد التركية قاصدا استنبول بصحبة شيخ تكيه حلب « عامل شلبي » وهناك في استنبول اتم الشيخ علي دراسته العالية في الموسيقى في معهد « دار الالحان » الشهير . وقد عين بعد ذلك مدرسا للموسيقى في مدينة « قسطموني » وهي مركز ولاية قسطموني الواقعة شمالي تركيا قريبة من شاطىء البحر الاسود . وقد الف في مدينة قسطموني فرقة موسيقية نحاسية اعضاؤها من طلبة المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع والميتم الاسلامي كانت هذه الفرقة تعزف في المناسبات الرسمية وغيرها . وكانت اقامته في مدينة قسطموني تسع سنوات تزوج خلالها من هناك .

وقد انجز في هذه الفترة كتابا في دراسة الموسيقى من تاليفه في خمسة الى سبعة ابواب .. ثم

عاد بعد ذلك الى مدينة حلب تاركا فى قسطموني اجمل الذكرى وخلف عددا من التلاميذ اصبحوا اساتذة من بعده .. وعندما عاد الشيخ علي الى اهله وذويه فى حلب كانت سوريا حينذاك تحت الانتداب الفرنسي . مكث ثلاث سنوات الف خلالها الكثير من الالحان الغنائية والآلية..مثل سماعي عجم عشيران وسماعي نهاوند ولونقا فرحفزا وغيرها . وقد بحث فى هذه الفترة من الالحان العربية القديمة التى اشتهرت بها سوريا وخاصة مدينة حلب فجمع من التراث العربي الشعبي القديم وغيره ودونه وسجله بالعلامات الموسيقية الحديثة كالموشحات والقدود والادوار وفاصل « اسق العطاش » ورقص السماح مع تدوين الحانها .

ثم انتسب عضوا عاملا الى نادي « الصنائع النفسية » وكان من اعضائه الاساتذة المرحوم شرف الدين الفاروقي والدكتور فؤاد رجائي والاستاذ سعد الدين القدسي مؤسس النادي وغيرهم .

وفى هذه الفترة سافر على راس فرقة موسيقية الى استانبول ، نال هناك نجاحا باهرا ثم عاد مصطحبا معه عددا ضخما من الكتب والمؤلفات الموسيقية فى شتى الفروع والاختصاصات فى اللغات التركية والعربية وغيرها ، وفى عام 1927 م حتى عام 1931م رحل الشيخ علي الى القطر المصري ، بعد تسلمه دعوة رسمية من النادي الموسيقي الشرقي بمصر الذي اسس فى القاهرة عام 1913 م . ذهب لتدريس الموسيقى هناك بعد ان اتفق اعضاء النادي المذكور الذي شمله الملك فؤاد الاول برعايته وعلى راسهم رئيس النادي مصطفى بك رضا ، على شراء كتاب مؤلف فى الموسيقى للشيخ علي وتدريسه مدة اربع سنوات بصورة مبدئية على ان يكون للنادي الحق فى نشر الطبعة الاولى من هذا الكتاب . وتعرف اثناء اقامته فى مصر على كثير من الشخصيات الفنية وغيرها . ودرس عليه فى هذه الاثناء بعض المشهورين الان كالاساتذة : محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطي والسيدة ام كلثوم . وكان الشيخ علي يعود الى حلب خلال عطلة النادي صيف كل عام . وفى عام 1931 م اي قبل انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية بسنة واحدة تعرف الشيخ علي فى مصر بمستشرق انجليزي يدعى البارون ديرلنجيه والذي دعاه هذا الاخير للعمل معه فى تونس لاتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية بعد ان اعجب بمقدرته الفنية ثم استحصل له من طريق النادي الموسيقي الذي كان يعمل فيه على اذن ملكي صادر فى سراي راس التين بالاسكندرية فى 18 تشرين الاول عام 1931م. وذلك للسفر مع ديرلنجيه الى تونس للعمل معه على اتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية .

وقد اشترك الشيخ علي فى عام 1932 م . فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد فى مدينة القاهرة بدعوة ملكية رسمية . هذا المؤتمر المشمول بالرعاية الملكية والذي اشترك فيه نخبة من اساتذة الشرق والغرب ودام انعقاده قرابة شهر . سافر الشيخ علي الى تونس ومكث هناك من عام 1931 م حتى عام 1939 اي حتى بداية الحرب العالمية الثانية . عندما سافر الى تونس عام 1931 م . كما ذكرت سابقا ومكث هناك عدة اشهر ، عاد الى القاهرة بعد ان طلب رسميا لمؤتمر الموسيقى العربية واثر انتهاء هذا المؤتمر سافر الى تونس صحبة البارون ديرلنجيه للعمل معه على اتمام ابحاثه ودراساته حول الموسيقى العربية بعد ان ترك القطر المصري نهائيا ، وبعد شهرين من وصوله الى تونس الخضراء ، تعاقد مع وزارة المعارف التونسية فى معهدي العطارين والرشيدية لتدريس الموسيقى . **فمكث فى تلك الديار زهاء ثمان سنوات كان يطوف خلالها مع دير لنجيه فى جميع البلاد التونسية وشمالي افريقيا للبحث عن الالحان الباقية من آثار الاندلسيين** الذين هاجروا قديما الى تونس والقيروان واكثرهم من سكان قرطبة وغرناطة واشبيلية وقد كلفت هذه الابحاث البارون ديرلنجيه مبالغ طائلة ولكن الشيخ علي وفق اثناء ذلك الى **جمع وتدوين اربعة عشر « نوبة اندلسية » وعشرين ملحقا لهذه النوبات وجملة موشحات اندلسية** . وقد استطاع الشيخ علي الاحتفاظ لنفسه بنسخة من هذه النوبات والموشحات الاندلسية لتكون فى حوزته .

وقد اسس الشيخ علي عند عودته الى مدينة حلب خلال العطل الصيفية مع رهط من اصدقائه من هواة الموسيقى حوالي عام 1934 م . ناديا موسيقيا لتدريس الموسيقى ونشرها باسم « النادي الموسيقي بحلب » وكان مقره وقتئذ فى باب النصر. ثم انتسب عضو شرف فى نادي « دوحة الميماس للموسيقى والتمثيل » فى مدينة حمص وكان فى تلك الاثناء عضوا عاملا فى حزب الكتلة الوطنية الذي كان يتزعمه الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ضد الانتداب الفرنسي، فلحن الكثير من الاناشيد الحماسية والوطنية فى مناسبات عديدة . فاذا ما انقضت العطلة الصيفية عاد الشيخ علي الى مقر عمله فى تونس .. وقد عمل

ايضا فى الاذاعة التونسية وقام من تونس مع بعض الاصدقاء برحلات الى اوربا وحضر بعض الحفلات الموسيقية لدور الاوبرا والسنفوني اذ كان يعجب جدا بتلك الموسيقى التي وصلت الى ما وصلت اليه فى تطورها من الرقي والكمال .

وفى هذه الاثناء توفى البارون دريلنجيه ماسوفا عليه بالنظر لخدماته الجلى للموسيقى العربية وقبل مغادرة الشيخ علي الديار التونسية انعم عليه باي تونس آنذاك بوسام الافتخار من الدرجة الثالثة تقديرا له على خدماته للموسيقى العربية فى المملكة التونسية .

وفى ابتداء الحرب العالمية الثانية عام 1939م قفل الشيخ علي راجعا الى وطنه تاركا آثارا طيبة واصدقاء وتلاميذ اصبحوا **عمداء النهضة الموسيقية فى تونس** ومنهم الاستاذ صالح المهدي رئيس اللجنة القومية للموسيقى حاليا ، وعندما عاد الى حلب الف كتابا فى الموسيقى بعنوان « النظريات الحقيقية فى علم القراءة الموسيقية » .

وفى عام 1942 م . عين الشيخ علي عميدا ومدرسا فى المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق .

وفى عام 1944 م . سجل فى محطة الاذاعة فى القدس بفلسطين نخبة كبيرة من الموشحات القديمة ثم عمل مدرسا فى معهد الفنون الجميلة فى بغداد من عام 1945 حتى عام 1951 م . وقد سجل فى اذاعة بغداد ايضا عدة تسجيلات من الموشحات القديمة وبقي هناك زهاء ست سنوات ، وفى عام 1946 م . كان الشيخ علي الدعامة الكبرى فى تاسيس المعهد الموسيقي فى حلب ولدى عودته الاخيرة الى الوطن عام 1951 م . عاد الى عمله السابق فى المعهد الموسيقي ، هذا المعهد الذي اسسه المرحوم الدكتور فؤاد رجائي ثم عين الشيخ علي الى جانب عمله فى المعهد مستشارا فنيا فى دار الاذاعة السورية فى حلب الى ان وافته المنية فى مدينة حلب يوم الخميس المصادف فى 12 ربيع الاول 1371 هـ . الموافق فى 26 تشرين الثاني عام 1952م عن عمر ناهز الثامنة والستين وقد شيعت جنازته فى حفل رهيب مشى فيها بعض الهيئات الحكومية وقد جاء خصيصا من اساتذة المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق للاشتراك بتشييع جنازته الى جانب اساتذة وطلاب المعهد الموسيقي فى حلب حشد كبير من الجمهور ، ودفن فى مقبرة آقيول بحلب .

واورد هنا مقتطفات من قصيدة شعرية للشاعر التونسي محمود بورقيبة يمتدح بها ضيف تونس حينذاك المرحوم الاستاذ علي الدرويش عنوانها :

ـ رابطة الفن بين تونس وشقيقتها سوريا ـ

يقول الشاعر محمود بورقيبة :

لعمدة الفن اجلالي واعظامي
الى «العلي »الى ذي المركز السامي

الى الذي حل بالخضراء فاغترفت
من فنه علم اوزان وانغام

الى الذي كان يلقي من شبيبتها
دوما عواطف تقدير واكرام

الى ان قال :

« علي » بلغ لسوريا الشقيقة من
خضرائنا كل تبجيل واعظام

وعد لتونس يا استاذ عودة از
هار الربيع لها فى عذب ابتسام

وانشر باجوائها فنا رفعت له
راسا كريما فاضحى شامخ الهام

الى أن قال :

سر عمدة الفن نحو الشام وابق لنا
الذكرى العزيزة ذكرى خير ايام

واحمل الى الشام من خضرائنا ارجا
عربون ود عميق بالحشا نامي

والشرق فى صدره لا زال يجمعنا
والفن قد ربط الخضراء بالشام